الملاحظات

كان فؤاد باشا وزير خارجية الإمبراطورية العثمانية، شريكاً مقرّباً لرئيس الوزراء، عالي باشا، في اتخاذ قرار نفي حضرة بهاءالله إلى عكاء وحبسه هناك. في عام ١٨٦٩م عُزل فؤاد باشا من منصبه وتوفي فيما بعد في نيس بفرنسا. لقد رأينا من قبل الطريقة والعبارات التي خاطب حضرة بهاءالله بها رئيس الوزراء في "سورة الرئيس" و"لوح الرئيس". بعد هذا أنزل حضرة بهاءالله "لوح فؤاد"، وهو لوح آخر ذو مغزى عميق وأهمية عظيمة، يؤنب فيه فؤاد باشا تأنيباً شديداً، ويصرّح بأن الله أماته عقاباً له، ويصف بعبارات غاية في القوة والبيان عذاب روحه عند مواجهة غضب الله في الآخرة جزاء ما اقترفه في تعذيب المظهر الكلي الإلهي. في نفس اللوح ينبأ حضرة بهاءالله عن سقوط عالي باشا والسلطان نفسه بهذه العبارات الواضحة النبوءة:

"سوف نعزل الذي كان مثله[1] ونأخذ أميرهم[2] الذي يحكم على البلاد وأنا العزيز الجبار."

---

[1] عالي باشا

[2] السلطان عبدالعزيز

لم يمض زمن طويل بعد نزول هذا اللوح حتى عُزل عالي باشا بنحو مهين من منصبه ومات سنة ١٨٧١م. في الوقت نفسه انطلقت عملية معارضة ضد السلطان في تركيا عام ١٨٧٦م وانتهت بإسقاطه عن العرش وحبسه على يد الثوار. وقُتل بعد ذلك بأيام قليلة.

وكما سنرى لاحقاً فقد لعب "لوح فؤاد" دوراً هاماً في اعتناق أمر الله من قبل أبرز وأقدر علمائه، ميرزا أبو الفضل.

الشيخ كاظم سمندر

كان "لوح فؤاد" قد وُجه للشيخ كاظم سمندر، من أهالي قزوين. وهذا الرجل العظيم كان أحد حواريي حضرة بهاءالله و"شعلة من حب الله" كما وصفه حضرة شوقي أفندي. كان جده قد التقى بحضرة الباب في كربلاء قبل إعلان دعوته، وشهد قدراته الاستثنائية في الدعاء أثناء الصلاة فانجذب بشدة إلى عظمة شخصيته وجلالها. كان والده، الشيخ محمد الملقب بـ"النبيل"،[3] أحد أتباع حضرة الباب المخلصين وفاز بمحضره في قلعتيّ ماه كو وچهريق. فيما بعد ذهب إلى بغداد وفاز بمحضر حضرة

[3] لا يشتبه مع الملاّ محمد الزرندي (النبيل الأعظم)، أو مع الملاّ محمد القائني (النبيل الأكبر).

بهاءالله. وقد عانى الاضطهاد والعذاب، وكان بيته في قزوين مركز نشاطات البابيين الأوائل.

ولد الشيخ كاظم قبل إعلان حضرة الباب دعوته ببضعة أشهر، وترعرع في منزل أتاح له منذ أوائل أيامه التعرف والاتصال بتلاميذ حضرة الباب الأوائل، من بينهم بعض حروف الحيّ وخال حضرة الباب. حتى منذ صباه المبكر أبدى الشيخ كاظم حماساً عظيماً لقضايا البابية، وعند بلوغه صار مؤمناً ضليعاً مخلصاً. وفيما بعد أدرك مقام حضرة بهاءالله وأصبح من أتباعه البارزين، وأفلح في نشر نور أمره في ربوع إيران عموماً وقزوين خاصة.

حينما وصلته أنباء إعلان حضرة بهاءالله دعوته وادعاءات ميرزا يحيى، قام بدراسة شاملة لكتابات حضرة الباب. فتوصل لنتائج جلية لا لبس فيها وهي أن حضرة بهاءالله وحده هو موعود "البيان". وفي سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٦-١٨٦٧م) حرّر مقالة بالعربية يستنكر فيها عصيان ميرزا يحيى، ويفند حججه ثم يبرهن على بطلان ادعاءاته بطلاناً تاماً. يشير حضرة بهاءالله في "لوح سراج" إلى هذه المقالة، مصرحاً بأن الله قد ألهم الشيخ كاظم كتابتها. ويُروى بأن حضرة بهاءالله كان قد منح الشيخ كاظم لقب "سمندر" بعد كتابته لتلك المقالة المتحدية.

كثيراً ما أثنى حضرة بهاءالله في ألواحه على أولئك الذين يدحضون حجج أعداء أمر الله. ففي "لوح سلمان" ينصح أتباعه بهذه الكلمات:

"يا سلمان حذّر أحباء الحق ألاّ يعترضوا بعين ناقدة على كلمات أحد من العباد. إذ عليهم ملاحظتها بعين الشفقة والرحمة. فهذه النفوس التي تكتب اليوم في ردّ الله بألواح نارية يتحتم الردّ عليها بما يقدر عليه **كذلك قدّر من لدن مقتدر قدير**. إذ إن اليوم تتم نصرة الحق بالذكر والبيان لا بالسيف وأمثاله **كذلك نزّلنا من قبل وحينئذ إن أنتم تعرفون. فوالذي ينطق حينئذ في كل شيء بأنه لا إله إلاّ هو** لو قام نفس بالردّ على **من ردّ على الله** بكلماته ليرد مقاماً يتحسّر عليه **جميع أهل** الملأ الأعلى وتعجز أقلام الممكنات عن ذكر ذلك المقام وتقصر ألسن الكائنات عن وصفه. إذ إن كل نفس استقامت اليوم على هذا الأمر الأقدس الأرفع الأمنع ستمنح من القدرة ما يمكّنها من مقابلة **كل من في السموات والأرض وكان الله على ذلك لشهيد وعليم."**

كان الشيخ كاظم مبلّغاً بارزاً لأمر الله. فكثير من مؤمني قزوين الأوائل مدينون في ولائهم لأمر الله إلى مجهوداته التي لم تقف عند حدّ في نشر رسالة حضرة بهاءالله. وكم من مستمع إليه تأثر وانتبه قلبه لنداء الله في هذا العصر بما وجد من حماس في إيمانه واشتعال مخلص. وقام أيضاً بدور فاعل هام لحماية أمر الله من تلفيقات أتباع ميرزا يحيى وفيما بعد أولئك الذين غُرر بهم خلال ولاية حضرة عبد البهاء من قبل ميرزا محمد علي، الناقض الأكبر لميثاق حضرة بهاءالله وعهده. أما المؤمنون في

قزوين، وهم الذين أثّرت فيهم ميول الانشقاق والخلاف ونقض الميثاق في الأيام الأولى، فقد وجدوا عوناً كبيراً ودعماً عظيماً بوجود الشيخ كاظم بينهم. وهكذا بواسطة ثباته واستقامته بصفة رئيسة تحوّلت جماعة المؤمنين واتحدت.

أولى الشيخ كاظم اهتماماً خاصاً بتعليم أطفاله وتربيتهم. ولتحقيق ذلك أتى لهم برجل، اسمه الملاّ علي ومعروف بلقب "معلم"، كان قد أعانه في تفهم حقيقة أمر الله واعتناقه. أقام ذلك المعلم بمنزل الشيخ وتبرع بمهمة تعليم أطفاله. قام بذلك الواجب حينما اطلع على نصح حضرة بهاءالله الوارد في "الكتاب الأقدس":

"كُتب على كل أب تربية ابنه وبنته بالعلم والخطّ ودونهما عمّا حدّد في اللوح والذي ترك ما أُمر به فللأمناء أن يأخذوا منه ما يكون لازماً لتربيتهما إن كان غنياً وإلاّ يرجع إلى بيت العدل إنّا جعلناه مأوى الفقراء والمساكين. إن الذي ربّى ابنه أو ابناً من الأبناء كأنه ربّى أحد أبنائي عليه بهائي وعنايتي ورحمتي التي سبقت العالمين."

كانت الجملة الأخيرة هي التي ألهمت الملاّ علي لتعليم أطفال الشيخ كاظم الكثيرين. واستمر بهذا العمل قرابة ستة وثلاثين سنة. وقد أثنى حضرة بهاءالله في أحد ألواحه على الملاّ علي لتنفيذه إحدى وصاياه مشيراً إليه بأنه أول معلم فاز برضى الله إذ

عمل بما أنزل في "الكتاب الأقدس". وخصّه ببركاته مصرّحاً بأن مجرد ذكره في ذلك اللوح هو أعظم مكافأة لروحه، ويؤكد له بأن اسمه سوف يُخلد في كل مدارس العالم، ويلمّح بأنه سيرسل له هدية رمزية تقديراً لعمله. فيما بعد أشار حضرة بهاءالله على الحاج أمين بأن يرسل عباءة إلى الملاّ علي هدية نيابة عنه، مضيفاً ملاحظة بأن العباءة يجب أن تكون من النوع الجيد جداً.

ذهب الشيخ كاظم مرتين للزيارة والتشرف بمحضر حضرة بهاءالله في عكاء. من ضمن الذين رافقوه في زيارته الثانية سنة ١٣٠٨هـ (١٨٩١م) كان الملاّ علي "المعلم"، وابن الشيخ، طراز الله سمندري، الذي خدم أمر الله كمبلّغ بارز لسنوات طويلة. وفيما بعد أنعم عليه حضرة شوقي أفندي برتبة أيادي أمر الله.

إيمان ميرزا أبو الفضل بأمر الله

لقد كانت النبوءات الوخيمة الواردة في "لوح فؤاد"، والمنبئة بكل وضوح عن سقوط كل من السلطان وعالي باشا، في أغلب الأحيان محور تكهنات ونقاش بين المؤمنين في تلك الأيام. بل إن كثيراً من غير البهائيين الذين حضروا الاجتماعات البهائية سمعوا كلمات حضرة بهاءالله في هذا اللوح وألواح مماثلة. وبينما كان هؤلاء يلاحظون تحذيراته بذهول وعجب، راح آخرون يعلّقون إيمانهم بأمر الله على تحققها.

ومن أبرزهم ميرزا أبو الفضل الشهير، وهو عالم بارز كان ينشد، بعد تحريه أمر الله، برهاناً قاطعاً يمكّنه من الاعتراف بأحقيّته. فظل يترقب تحقق هذه النبوءات. وعندما اعتنق أمر الله صار من أعظم عناصره النيّرة ودافع عنه ضد أعدائه بمهارة فائقة وتفان مثالي.

ولمّا كان ميرزا أبو الفضل واحداً من أعظم بحّاثة أمر الله، ونصيراً من أرفع مقام، وهو الذي أثرى المكتبة البهائية بإسهاماته الضخمة، فيجدر أن تحتل ذكراه العزيزة بضع صفحات من هذا الكتاب.

إن قصة مواجهاته مع المؤمنين بعد تعرّفه على أمر الله لهي قصة مشوّقة حقاً. ففي عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) عندما كان في أوج مهنته مديراً لمعهد ديني بطهران، تقدّم إليه أحد تلاميذه مستنجداً بعونه في الرد على حجج طرحها نفر من البهائيين كان على اتصال معهم. وكان هذا الرجل يأتي بالأسئلة لميرزا أبو الفضل ثم يرجع بأجوبته وملاحظاته إلى البهائيين.

في تلك الآونة كان هناك مؤمن اسمه عبد الكريم ماهوت فروش (تاجر أقمشة) يملك حانوتاً في السوق، وكان منزله ملتقى يعقد فيه البهائيون مجالسهم ويحضر فيها أيضاً من أراد البحث والتعرف على أمر الله. وغالباً ما كانت تلك الاجتماعات تمتد حتى الساعات المبكرة من الصباح. وبكيفية ما تعرّف ميرزا أبو الفضل، ودونما علاقة

بتلميذه الذي كان مهتماً بالدين البهائي، على عبد الكريم وصار يزوره من حين لآخر في دكانه. ظل ميرزا أبو الفضل لفترة يجهل بأن عبد الكريم كان بهائياً. لكن وقعت بعدئذ حادثة بسيطة دفعته لمجابة شخص بهائي مباشرة.

ففي عصر أحد أيام الجمعة ترك ميرزا أبو الفضل المدينة برفقة نفر من الملاّوات قاصدين زيارة ضريح في إحدى ضواحي العاصمة. كانوا جميعاً راكبين على الحمير. وزيارات كهذه كانت أمراً مألوفاً في المجتمع آنذاك في أيام الجمعة ويقصد منها الترفيه وزيارة أماكن مقدسة.

وتصادف أثناء خروجهم من المدينة أن فُقدت حدوة أحد الحمير، فقصدت الجماعة أقرب حداد طلباً للعون. عند ملاحظة الحداد، واسمه الأستاذ حسين نعل بند (صانع ومركّب الحدوات)، لحية وعمامة ميرزا أبو الفضل الضخمة -دلالة على واسع علمه- أحب الدخول معه في حديث. فقال للميرزا بما أنه قد شرّفه بوجوده فهلا تكرّم عليه كذلك بالسماح له أن يسأله عن مشكلة باتت تشغل باله منذ زمن. ولمّا أذن له بالسؤال قال: ‘هل صحيح بأن هناك من أحاديث شيعة الإسلام ما يفيد أن كل قطرة من المطر تنزل من السماء تكون مصحوبة بملاك؟ وبأن هذا الملاك هو الذي ينزل المطر على الأرض؟’ ‘هذا صحيح’ أجاب ميرزا أبو الفضل. وبعد برهة صمت عاد الحداد واستأذن ليسأل سؤالاً آخر وأذن له، فقال: ‘هل صحيح بأنه لو وُجد كلب في

بيت فلن يدخل ملاك ذلك البيت؟' وقبل التفكير في العلاقة بين السؤالين أجاب ميرزا أبو الفضل بالإيجاب. 'في هذه الحالة' علّق الحداد 'لا ينبغي نزول مطر أبداً في بيت فيه كلب.' هنا وجد ميرزا أبو الفضل، العلامة المسلم المعروف، نفسه في ارتباك مخز أمام حداد. فاستشاط غضباً بحيث لاحظ عليه رفاقه مدى حرجه وعاره. فهمسوا في أذنه: 'إن هذا الحداد بهائي.'

تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً في نفس ميرزا أبو الفضل. أمّا الحداد فقام بدوره بنقل كل ما حدث لعبد الكريم ملمحاً بأن ميرزا أبو الفضل، نتيجة جرح كرامته إثر الحادثة، قد يرحب الآن بملاقاة مبلّغ بهائي أملاً باسترداد شعوره بالتفوق والسيادة. أثبتت الوقائع فيما بعد صحة تقديره. فعندما دعا عبد الكريم ميرزا أبو الفضل للمشاركة في حوار مع أحد البهائيين، قبِل الدعوة. ويبدو أن ميرزا أبو الفضل، حتى ذلك الحين لم يشك بأن عبد الكريم نفسه كان بهائياً.

فعقد اللقاء في منزل عبد الكريم. لكن المبلّغ البهائي الذي دعاه عبد الكريم للحضور لم يكن رجلاً متعلماً إلاّ أن قلبه كان متوجهاً ومتصلاً بمصدر كل العلوم. ورغم صعوبة وغموض الموضوعات التي أثارها ميرزا أبو الفضل أثناء الاجتماع والمناقشة، ورغم كل ما أبداه من اعتراضات فإنه لم يتمكن من الطعن بسلامة

واستقامة الحجج التي طرحها ذاك المبلّغ البهائي الذي أجاب وشرح بأسلوب غاية في البساطة والتعبير.

قد يبدو غريباً أن يصبح أناس غير متعلمين مستنيرين بعرفان الله وعلمه. في الواقع إن إحدى براهين نفوذ الله في هذا الظهور هو أنه إلى جانب وجود عدة نفوس متعلمين ممن ارتقوا إلى مقدمة صفوف المبلّغين في أمر الله، فإن هناك أيضاً من لم يحصل على تعليم جيد بل كان بعضهم أمياً لكنهم أفلحوا في هداية نفوس كثيرة لأمر الله.

وكما ذكر في المجلدات السابقة فإن موضوعات مثل عرفان الله ومظاهره، والقدرة على اكتشاف أسرار الحياة، وإدراك الحقيقة الدينية، وتفهّم حقيقة الإنسان، لا تعتمد على الدراسة العلمية. إن هذه المعرفة يمنّ بها الله على الفرد، وإن قلب الإنسان هو الذي يتلقاها فيصبح منبعاً للتنوّر والقوة والإدراك.

وقد صرّح حضرة بهاءالله بجلاء بأن الشرط الأساسي لاكتناز هذه المعرفة وهذا الإدراك هو الانقطاع عن هذه الدنيا. ففي مستهل فقرة افتتاح "كتاب الإيقان" يصرّح بما يلي:

"... أن العباد لن يصلوا إلى شاطئ بحر العرفان إلاّ بالانقطاع الصرف عن كل من في السموات والأرض. قدّسوا أنفسكم يا أهل الأرض لعل تصلنّ إلى المقام الذي قدّر الله لكم وتدخلنّ في سرادق جعله الله في سماء البيان مرفوعاً.

جوهر هذا الباب هو أنه يجب على السالكين سبيل الإيمان والطالبين كؤوس الإيقان أن يطهّروا أنفسهم ويقدّسوها عن جميع الشؤونات العَرَضية- يعني ينزّهون السمع عن استماع الأقوال، والقلب عن الظنونات المتعلقة بسبحات الجلال، والروح عن التعلق بالأسباب الدنيوية، والعين عن ملاحظة الكلمات الفانية، ويسلكون في هذا السبيل **متوكلين على الله، ومتوسلين إليه** حتى يصبحُنّ قابلين لتجليات إشراقات شموس العلم والعرفان الإلهي، ومحلاً لظهورات فيوضات غيب لا يتناهى. لأن العبد لو أراد أن يجعل أقوال العباد من عالم وجاهل وأعمالهم وأفعالهم ميزاناً لمعرفة الحق وأوليائه فإنه لن يدخل أبداً رضوان معرفة رب العزة، ولن يفوز بعيون علم سلطان الأحدية وحكمته، ولن يرد منزل البقاء ولن يذوق كأس القرب والرضا."

إن العرفان الحقيقي هو تفهّم المعنى الباطني وإدراك أهمية حقيقة ما. والانقطاع عن هذه الدنيا، الذي تتكرر الإشارة إليه ويتوفر شرحه في آثار حضرة بهاءالله، هو السر في الوصول إلى حياة تنسجم مع قوانين الخليقة. وكما ذكرنا في

المجلدات السابقة، فإن الانقطاع عن الدنيا لا يعني بالضرورة حياة تسوّل، أو زهد، أو فقر أو عدم الاهتمام والاعتناء بأمور الدنيا. ولعل أحد أشكال التعلق بالدنيا، وربما يكون أخطرها، هو حب الإنسان لذاته ولمنجزاته.

الشيخ كاظم سمندر

أحد حواريي حضرة بهاءالله والمبلّغين المخلصين لدعوته

الأستاذ حسين "نعل بند"

(الإسكافي) أول من تعرّف على ميرزا أبو الفضل

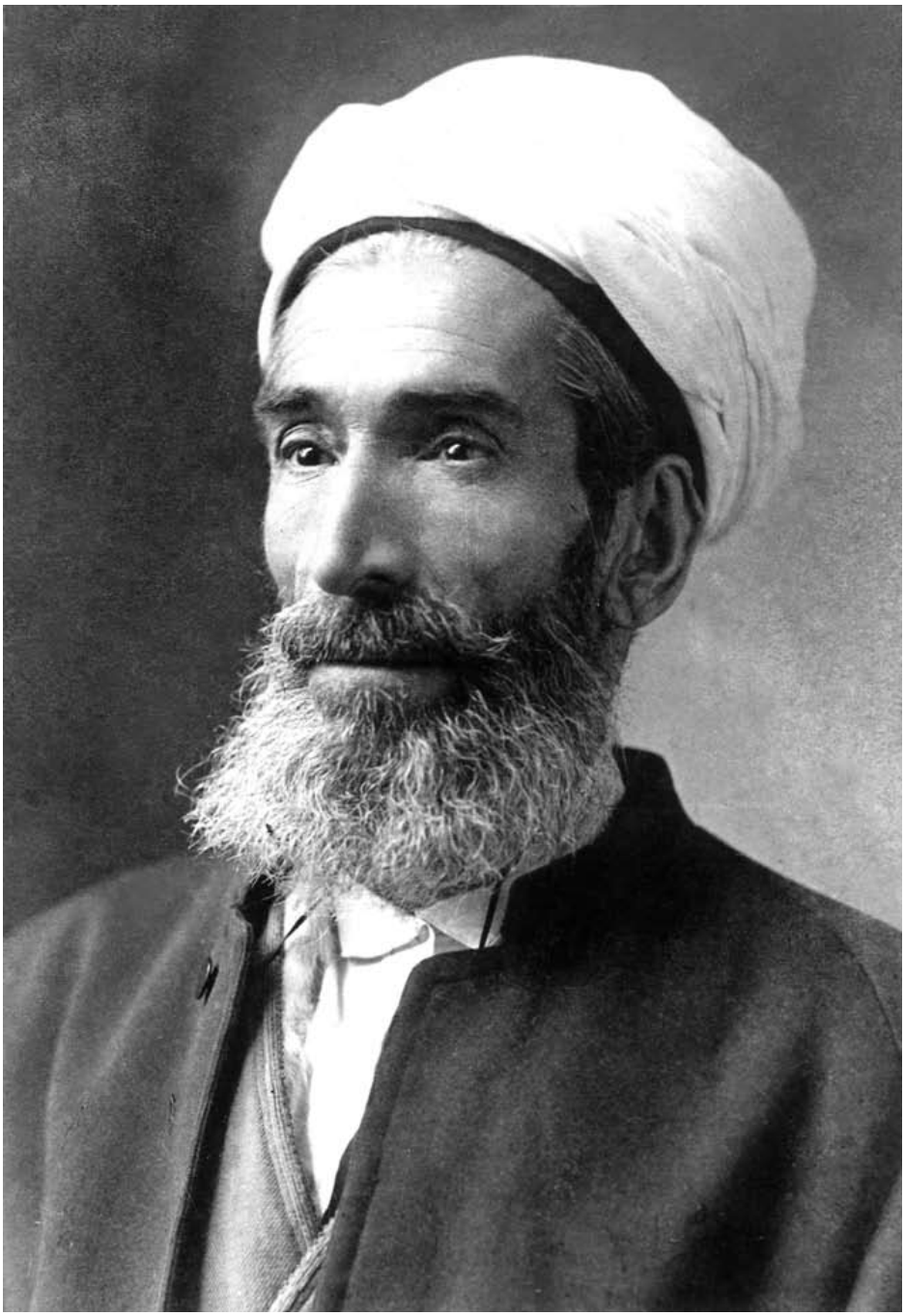

ميرزا أبو الفضل

علاّمة بهائي نابغة، وأحد حواري حضرة بهاءالله وأشهر مبلّغي أمره

مانكچي صاحب

مبعوث زرادشتي أصبح من المعجبين بحضرة بهاءالله وتلقّى عدداً من ألواحه. عمل ميرزا أبو الفضل سكرتيراً له لبعض الوقت وكان الواسطة بينه وبين حضرة بهاءالله

في الفقرة السالفة يتبين كيف أن حضرة بهاءالله يؤكد بقوة ووضوح على أن ليس هناك بديل آخر يسلكه الإنسان لنيل هبة العرفان العظمى، وهذا العرفان هو ما لا يُكتسب بالدراسة والتعلم.

فالعالِم العظيم، ورجل العِلم قد لا يكون بالضرورة قادراً على فهم أو اكتشاف الحقائق الباطنية لمخلوقات الله والظهور الإلهي. يجب عليه أن ينقطع عن هذا العالَم، إذ إن علوم مثل هذا الرجل نفسها تشكل في الواقع أعظم تعلّق[1] بالدنيا، كما يؤيد ذلك حضرة بهاءالله في كتاباته مراراً، إن العلوم المكتسبة غالباً ما قد تكون حجاباً يحول بين قلب المرء وتقبُّل نور الهداية الإلهية وهبة العرفان الحقيقي. إن عبد الكريم، الذي لم يكن متعلماً، وغيره من أمثاله الذين ساهموا بتبليغ أمر حضرة بهاءالله لنفوس بارزة في العلم والمعرفة مثل ميرزا أبو الفضل، كانوا ممن وُهبوا عرفان الله وأوتوا حظاً عظيماً من قوة الإدراك والفهم. ولم يوهبوا ذلك إلاّ بإيمانهم بحضرة بهاءالله وانقطاعهم عن أنانيتهم الذاتية وأهواء أنفسهم.

لقد تملّك ميرزا أبو الفضل العجب في اجتماعه الأول بالمؤمنين إذ وجد نفسه غير قادر على محاورة بهائي غير متعلم، ورغم ذلك لم يستطع دحض حججه. إلاّ أنه طلب من مضيفه عبد الكريم عقد جلسة يحضر فيها بهائي متعلم لأنه يود منازلة

شخص من مستواه كي يثبت أخيراً تفوقه وغلبته ويدلل على بطلان ادعاءات حضرة الباب وحضرة بهاءالله!

تم ترتيب الاجتماع، لكن عبد الكريم تعمّد ألاّ يدعو إليه بهائياً متعلماً كما طلب ميرزا أبو الفضل. ومع أن عبد الكريم لم يكن مثقفاً، لكن أدرك بحكمته الواسعة أن رجلاً مغتراً بعلمه بمثل تلك الدرجة سوف لن يكون ذا بصيرة تهديه لدين الله. كما علم بأن ما كان يحتاجه ميرزا أبو الفضل هو شخص باستطاعته كشف جهله الحقيقي للدين الحق. ولن يكون أكثر لياقة لعمل تلك المهمة إلاّ شخص مؤمن بسيط خال من العلم المكتسب لكنه غني بإيمانه وفهمه الروحاني.

عند حضور ميرزا أبو الفضل هذا الاجتماع وجد نفسه مرة أخرى أمام أشخاص غير متعلمين. وسرعان ما وجد نفسه أيضاً مدحوراً تماماً تلقاء حجج وبراهين بسيطة لكنها وافية منيعة طُرحت في سياق النقاش، ورداً على ما طرحه هو من أسئلة. فلم يسعه إلاّ الحيرة والعجب لرؤية هؤلاء الرجال غير المتعلمين وهم يملكون مثل ذاك الفهم العميق العجيب لأسرار القرآن الكريم وغيره من الكتب المقدسة.

استمرت تلك المناقشات عبر عدة جلسات بين ميرزا أبو الفضل ومبلغيه البسطاء غير المتعلمين. وكما توقّع مضيفه كان لتلك المناقشات أثر بيّن في توعيته وصحوته.

ولمّا كان هدفه الأساسي لحضور اجتماعات البهائيين كشف سخف ادعاءاتهم وبطلانها، فقد أصيب بالخذلان وأحس بشيء من الضِّعة ملحوظ أمام عجزه في دحض بعض الأدلة المقدّمة من كل هذا النفر من النفوس غير المتعلمة من بين المؤمنين، وهو ما سبب له جرحاً في كبريائه إذ مُني بعدة هزائم خلال حواره معهم. لكنه قابل فيما بعد بهائيين متعلمين وتحاور معهم في شتى الاجتماعات حيث وجد دائماً حججهم منيعة لا تُدحض. وذات مرة دخل في حوار مع الملاّ محمد القائني الشهير (النبيل الأكبر). ويروى أنه عند نهاية لقائه معه قد هتف، وقد عبر صوته عن مدى دهشته قائلاً: 'والله! لا يمكن أن يوجد أحد يستطيع مقاومة قوة حجة هذا الرجل المتبحر بالعلم.'

في إحدى مؤلفاته يصف ميرزا أبو الفضل أوائل أيام معرفته بأمر الله بهذه العبارات:

في عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) لمّا كان كاتب هذه الصفحات مقيماً في طهران وراسخاً في عقيدة شيعة الإسلام، اتّفق أن صارت له علاقة، من خلال بعض الأحداث، مع أهل البهاء. كان غرض جهده الأول هو إفحامهم وإلزامهم بالتسليم والمساهمة في قمع نموّهم. فقام لمدة ثمانية أشهر تقريباً بإجراء مناقشات مع أهل العلم في هذه الطائفة في مجالس عديدة. لكنه وجد في النهاية بأن كل حبال

أوهامه قد انفصمت وظهر مقاومته انقصم. بعد ذلك بدأ يسلك طريق الاجتهاد والطلب للبحث عن الحقيقة. فبذل كل جهوده تحرياً عن أدلة هذا الدين، وإقامة صلات متينة بروح من الأخوّة مع رؤساء الأديان والمذاهب، من اليهود والزرادشت والمسيحيين والسنّة والشيعة والأزليين والبهائيين، وقام باستعلامات مستفيضة من الأعداء والأصدقاء بشأن مؤسس الدين، ودرس عن كثب الكتب المقدسة، وتأمل بكامل العناية في كلمات الغنوصيين والإلهيين، وصلّى مناجياً ربه في الليالي والأسحار في نهاية العجز والاكتراب عسى أن يمنّ عليه بالهداية ويفتح بصيرته. إلى أن أخيراً، وبمشيئة الله تبارك وتعالى، استنارت بصيرته بشأن شتى الشرائع الإلهية، وبذلك زالت عن قلبه الحيرة والاكتئاب وامتلأ بالسكينة والإيقان.

إلاّ أن ميرزا أبو الفضل، قبل الوصول للمرحلة الأخيرة من الفوز باليقين والدخول في حظيرة أمر الله، كان قد صارع صراعاً فكرياً هائلاً. ففي الوقت الذي عجز عقله عن رفض ومقاومة أحقية أمر الله، لم يكن قلبه بعد قد استضاء بنور الإيمان والإيقان. وقد قرأ خلال هذه الفترة معظم كتابات حضرة الباب وحضرة بهاءالله التي كانت متوفرة. إن قصة قراءته "كتاب الإيقان" لأول مرة وردود فعله، سبق عرضها في مجلد سابق. لم تكن تلك التجربة مسلية جداً فحسب، بل كشفت في الوقت ذاته عن صفاء نيّته.

لمّا أحسّ ميرزا أبو الفضل بالخيبة والخذلان التامّين أمام قوة الحجج التي جاء بها مبلّغوه البهائيون، خطرت له فكرة أنه ما لم يحقق له حضرة بهاءالله معجزة فلن يطمئن قلبه. وقد حاول البهائيون أن يشرحوا له بأن المعجزات لا يمكن الركون إليها كبرهان قاطع لأحقية رسل الله، ذلك لأنها لا يمكن رؤيتها من قبل سائر البشر وفي كلوقت وزمان. بل تنحصر قيمتها وفائدتها للقليل ممن شاهدوها. ثم من جهة أخرى ليس للإنسان أن يمتحن الله. لكن ميرزا أبو الفضل ظلّ مصّراً على مطلبه. فكتب بضعة أسئلة على ورقة ووضعها في مغلف وختمه بخاتمه الخاص وسلّمه إلى عبد الكريم ليحفظه. ثم وضع ورقة بيضاء في مغلف آخر وطلب من عبد الكريم إرساله إلى حضرة بهاءالله. قال لو أجاب حضرته عن أسئلته فلن يبقى عنده أدنى شك بأحقية أمر الله.

قام عبد الكريم بعد ذلك، رفقة ميرزا أبو الفضل، وأخذ معه الرسالة الخالية والظرف المختوم وتوجّها إلى منزل الحاج محمد إسماعيل الذبيح ليرسلها إلى حضرة بهاءالله. فيما بعد روى ميرزا أبو الفضل القصة للحاج ميرزا حيدر علي، وفيما يلي ترجمة موجزة لها:

لمّا وصلنا علمنا بأن الحاج لم يكن موجوداً، لكن زوجته التي كانت تعرف عبد الكريم... رحبت بنا بحرارة وألحت، بروح من الود والكرم، على أن ندخل...

دخلنا حجرة كان فيها كتب وحقيبة تحوي ألواحاً مباركة... أذنت لنا بفتح الحقيبة لو رغبنا بالإطلاع على الآثار المباركة. ولمّا كان عبد الكريم أميّاً سألني لو أقرأ أنا له. فلبيت طلبه بدافع اللباقة التي عرفت بها.

كان هناك لوح مكتوب على ورق أزرق وموجه للسلطان عبد العزيز.[4] مررت أثناء قراءتي بقصة "عرض السلطان سليم"[5] وفتنت بها. وجدت فقراتها في غاية البلاغة والجلاء والجمال. وكلما قرأت أكثر زاد لهفي في القراءة. لم أقرأ طوال حياتي بيانات بمثل هذه الروعة، مما سحر لبّي وانجذب لها فؤادي. إلاّ أنني فكرت بكل شيء من هذا القبيل إلاّ أن تكون تلك الكلمات من عند الله! بعد ذلك أتيت على هذه الكلمات العليا: "**سوف نعزل الذي كان مثله ونأخذ أميرهم الذي يحكم على البلاد وأنا العزيز الجبار**".

عند قراءتي ذلك البيان ذهلت وانتابتني الحيرة والعجب. بقيت صامتاً مدة نصف ساعة تقريباً غارقاً في أفكاري متسائلاً عمّا إذا كان ذلك من قبيل السحر والشعوذة، ومن المؤكد أنه كان امتحاناً خطيراً لي.

---

[4] يبدو أن الحاج ميرزا حيدر علي قد اشتبه عليه موضوع اللوحين. وكانا "لوح الرئيس" و"لوح فؤاد" ووجها إلى عالي باشا وفؤاد باشا بالترتيب وليس للسلطان، مع أن هناك إشارات للسلطان في هذين اللوحين.

[5] حضر حضرة بهاءالله في طفولته حفل زفاف أحد إخوانه في طهران. وهناك شاهد عرضاً للدمى يذكره في "لوح الرئيس".

أخيراً استقر ذهني على أن "وقت النهاية" قد حان، وما لم يشيع الكفر لا يظهر الموعود المنتظر. لذا أصررت في جدالي مع نفسي قائلاً بأن حضرة بهاءالله نطق بهذه البيانات والتنبؤات بغية تضليل عامة الناس وإحكام سيطرته على أتباعه. وإلاّ لن يمكن لشخص سجين بأمر الملك أن يخاطبه بهذه اللهجة الشديدة خصوصاً وأنه فرد وحيد لا عون له في بلاد غريبة... بهذه الأوهام والأفكار الشيطانية كان رأسي مشغولاً ومع ذلك أحمد الله بما أنعم عليّ من عناياته محبته إذ لم يدر في خاطري كره حضرة بهاءالله أو إساءة الأدب إليه.

... وعلى أي حال قلت لعبد الكريم، وأنا أحاول إنقاذ نفسي منه... 'إن امتلاك القدرة للتحكم في حياة المخلوقات لهو معجزة لم يأت بمثلها الأنبياء السابقون'... وعليه استرجعت المغلف المختوم ورسالتي الخالية الموجهة لحضرة بهاءالله ومزقتهما معلناً أنه بالنسبة لي سيكون تحقق هذه النبوءات برهاناً وميزاناً على الحق. وكذلك أخذت عهداً بألاّ أسمع أحداً يحدثني عن أمر الله بعد ذلك حتى يتم تحقق هذه النبوءات.

ظننت في نفسي بأن حادثة ذهابي لمنزل الحاج لم تكن مجرد عناية إلهية أنقذتني من الخوض مع البهائيين بمناقشات أخرى، بل إنها وفّرت لي فرصة عسى

أن أتمكّن بها من إنقاذهم من المضي بطريق الضلال. لكن المؤمنين لم يقطعوا من جانبهم كل علاقة بي. فكانوا يأتون لزيارتي من وقت لآخر، ومن خلال محاوراتهم... حاولوا أن يحرروني من قيود الأوهام. لكنني كنت كالعنكبوت، كلما قطعوا خيط أوهامي زدت بنسج غيرها.

مرّت بعد ذلك خمسة أو ستة شهور (على يوم قراءة تلك الألواح). كنت خلال هذه الفترة أفكر في كثير من الأحيان بنبوءة حضرة بهاءالله بشأن السلطان. وحدث يوماً أن كنت ماراً بمسجد الشاه بطهران إذ وقع نظري على الحاج ميرزا أفنان الذي كان تاجراً محترماً وأحد المؤمنين اللامعين بهذا الأمر الأعظم. كان برفقته ميرزا حيدر علي الأردستاني، من الناجين من قلعة الشيخ الطبرسي.

كان الرجلان يقفان في الشارع يتحدثان. وبما أنني كنت مصمماً على تجنب البهائيين والتهرب من لقائهم، رفعت عباءتي مغطياً رأسي وقطعت الشارع مبتعداً عنهما. لكنهما شاهداني وناديا باسمي، ولم يكن لي خيار إلاّ الاستجابة لندائهما. فاجئاني بالقول: 'إن برهان أمر الله قد ثبت وتحقق لك. فقد وصلت أنباء عزل السلطان عبد العزيز بالتلغراف.' كان لذلك النبأ وقع ثقيل وصدمت لسماعه صدمة هائلة. ورغم علمي بما كانا يعنيان من وراء ذلك، فإني أجبت بسورة غضب صائحاً: 'وما شأني وخلع السلطان، فلست من أقربائه.' فذكّراني

قائلَين: 'ألم تشترط على قبولك لأحقية هذا الأمر أن يتحقق هذا الحدث؟' فزادني ذلك غضباً بحيث تركتهما ومشيت دون كلمة وداع. لم أقصد المكان الذي كنت متّجهاً إليه بل رجعت إلى بيتي.

ولعلمي بجسامة هذا الامتحان، استسلمت لنوبة غضب عاصفة سالت دموعي بأثرها من عيوني دون سيطرة، وصرت أتضرع إلى الله أن يعينني لئلا أضلّ. بينما أنا في تلك الحال وصل عبد الكريم مع اثنين آخرين. لكنني لم أكن في مزاج ذهني يمكنني معه دعوتهم للدخول وعليه تركت المنزل ولم أعد إلاّ في وقت متأخر من المساء. لقد عرف هؤلاء الأصدقاء بأنني كنت عاجزاً عن مواجهتهم وبأنني هربت منهم. فانتظروا يومين أو ثلاثة ثم عادوا. أبديت لهم اعتذاري لسلوكي تلك الأمسية، ثم قلت لهم بأن علينا الآن أن نترقب تحقق بقية تلك النبؤة -**ونأخذ أميرهم**- وقد بينت مفسراً بأن كلمة "نأخذ" لا تعني موتاً طبيعياً، إذ إن كل إنسان يموت. بل إنها تعني بأنه لا بد أن يموت قتلاً.

كان حماسي لإيجاد الحقيقة قد بلغ أوجه في تلك الآونة. فزرت جميع العلماء الذين كنت أثق بهم وناقشتهم في مبادئ الدين لكني وجدتهم بلا عون أو فائدة. بينما وجدت ما قدّمه البهائيون من حجج وأدلة كانت، في نظري، قاطعة وتفوقها

قوة وإقناعاً. من جهة أخرى فإني أصبحت آنذاك أكثر قدرة على استنباط أسرار القرآن الكريم وفهم معانيه.

مضت بضعة أيام وإذا بنبأ اغتيال السلطان يُبرق بالتلغراف فطار لبّي واضطربت كل الاضطراب. بلغ بي الحال أن وجّهت اللكمات إلى نفسي. فتارة كنت أتخاصم مع الله، وأخرى أنقلب كافراً ثم أعود بعدها أستغفر وأطلب من الله أن يعينني ويهديني ويحفظني. اجتزت من العذاب بحيث لم أتمكن من صرف تلك الأفكار عنّي واسترجاع راحة بالي لا في الليل ولا في النهار. فتعذر عليّ الأكل والنوم. واكتفيت بشرب الشاي والتدخين والبكاء.

في إحدى الليالي استيقظت من النوم وصرت أحاسب نفسي بهذه الكلمات: 'لقد مرّ عام تقريباً وأنت تعاشر وتناقش هؤلاء البهائيين. ورغم أنهم رجال أميّون غير متعلمين، إلاّ أنهم أكدوا سطوتهم عليك في كل مرة، وأتوا بالبراهين ودللوا على أحقية دينهم. ومع أنك تعتبر نفسك رجلاً متعلماً وبحّاثة في الكتب المقدسة، والتفسير والحديث، لكنك تعلم في الوقت نفسه بأن هؤلاء الرجال أكثر دهاء منك. وكأنهم ملهمون وأن الله بجانبهم، وروح القدس ينطق من خلالهم. كما أنك شهدت بنفسك سمو خلقهم وفضائلهم السماوية. فلِمَ تفسر كلامهم على أنه وساوس الشيطان؟ تذكّر كيف سُحرت بقراءة حكاية "عرض السلطان سليم" في

"لوح الرئيس" وكيف فُتنت ببيان تلك الكلمات وسموّها! والآن عليك أن تقرأ وتتحرى كتابات من يدّعي أنه مُنزل الكلمة الإلهية بعين العدل والإنصاف. وإن لم يكن هذا الأمر حق، فإن أول من يقاومه هو الله. وبناء عليه يستحيل بقاؤه...

فقمت وتوضأت وصلّيت. ثم أخذت لوح حضرة بهاءالله ("لوح الرئيس") الذي، رغم احتفاظي بنسخة منه لزمن طويل، لم أشعر بميل لقراءته. ففتحته وبعيون تدمع توجهت مخلصاً لله وشرعت بقراءته. وعندها سمعت صوت الله... يناديني من خلال لسان هذا المظهر (الإلهي)، 'ألست بربك؟' فأجبت لندائه الصادر عن الجمال الأبهى: "لبيك، لبيك!" آمنت وصدّقت.

هكذا اجتزت حالة الظنون والأوهام إلى اليقين... وأصبحت منجذباً كل الانجذاب للكلمة الإلهية ومنجرفاً بقوّتها. كما شعرت بحب وتفان نحو مطلع الظهور الإلهي (حضرة بهاءالله) وذقت نوعاً من البهجة والانشراح في باطن نفسي ما لن أستطيع وصفه. ولا يمكن للكلمات التعبير عن السموّ الروحي الذي ارتقيت إليه... وأدركت بأني حتى لو قمت على خدمة هذه النفوس التي صارت سبباً في هدايتي مدى حياتي، بل لو فديت حياتي في سبيلهم، لن يمكنني إيفاء حقهم عليّ بما وهبوني خلاصاً أبدياً وحياة روحية...

قضيت تلك الليلة في نعيم لا متناه. وقبل الفجر أسرعت إلى بيت عبد الكريم. وقبّلت عتبة البيت، ثم سجدت عند قدميه وأبديت من التواضع ونكران الذات ما بعث في نفسه حرجاً شديداً. قال لي بأن سلوكي ذاك لم يكن له ما يبرره وجاء وليد ظنوني، فإن الله وحده الذي يهدي القلوب وليس العبد.

بعد اعتناقه دين حضرة بهاءالله، أصبح ميرزا أبو الفضل خلقاً جديداً. فصار له من عمق البصيرة الروحانية والإيمان ما يندر وجوده لدى أتباع حضرة بهاءالله. يعود ذلك ربما، في الدرجة الأولى، لطهارة قلبه التي أعانته خلال رحلة بحثه عن الحقيقة على مجاهدة وخرق كثير من الحجبات كالشعور بالعزة والفخر والمعتقدات الخرافية والأوهام، حتى لم يبق فيه سوى نفس مطهرة منجذبة لحضرة بهاءالله شأنها شأن قطعة حديد حيال مغناطيس قوي. وقد كان انجذابه تاماً لدرجة، كالحديد الممغنط، أنه أسلم إرادته تسليماً كاملاً لإرادة حضرة بهاءالله وأصبح نتيجة ذلك من عمالقة الروح، مزيناً بفضائل وإنجازات لم يفُقْه فيها غير القليل، إذا وُجد، من حواريي حضرة بهاءالله في الصفات والكمالات.

وفي الدرجة الثانية، وبتأثير دين حضرة بهاءالله، فإن علمه الواسع بالدين عموماً، والتاريخ والفلسفة اكتسب بعداً ونوعية وقوة جديدة. فقد عملت قوى ظهور حضرة بهاءالله كشعاع النور بينما كان علمه بمثابة العين. فبدمج الاثنين اكتسب رؤية جديدة.

وهذا العلم، الذي صار الآن موجّهاً بهداية نور الإيمان ومؤيداً بالانقطاع عن كل الشؤونات الدنيوية، أسبغ هبة فهم حقيقي لدرجة جعلته ينبوعاً للعرفان الإلهي. واستخدم هذه المعرفة كواسطة ليفهم، بالقدر الذي يستوعبه الإنسان، الحقيقة الكامنة في ظهور حضرة بهاءالله. ومن خلال عرفان الله، والانقطاع عن كل علائق الدنيا، والعيش وفق الحياة البهائية، تمكّن من إدراك مقام حضرة بهاءالله وعظمة أمره بدرجة ربما لم يبلغها إلاّ القليل.

إن عرفان المظهر الإلهي (حضرة بهاءالله في هذا العصر) هو أول خطوة نحو ترقية النفس روحانياً. وبما أن هذا العرفان نسبي ويختلف من شخص لآخر، فإنه يتبين جلياً بأن الذين ينجحون في إدراك عظمة ظهور حضرة بهاءالله إدراكاً عميقاً، ويصبحون واعين حقاً بسمو مجده وهيبة جلاله المذهلة، فإنهم يوهبون قدراً أعظم من قوى الإدراك الروحاني. وقد نال ميرزا أبو الفضل ذلك بدرجة فائقة وصار مصداقاً لقول حضرة بهاءالله:

"من عرفني يقوم على خدمتي بقيام لا تقعده جنود السموات والأرضين."

أمّا وأنه قد استوعب بمثل هذه البصيرة النافذة أهمية يوم الله وعظمته الذي أشرق بظهور حضرة بهاءالله فإنه واضح بيّن من كتاباته وسيرة حياته.

وقد وصف المرحوم علي قلي خان، الذي أمضى فترة طويلة مع ميرزا أبو الفضل، العشق الذي كان يتوجه به الأخير في صلاته ومناجاته، ويضيف معلقاً: "إن سبب توجهه بذلك العشق في دعائه وصلاته وبكائه أثناء ذلك مرجعه إلى مفهومه لعظمة الله ونكران ذاته هو ووجوده، معتقداً بأن وجوده نفسه، الذي هو هبة من رحمة الله، إنما هو خطيئة في هذا اليوم الذي "**لا يُرى فيه إلاّ سناء النور المشرق من وجه ربك الكريم الفضال**."

بهذه السجايا أصبح ميرزا أبو الفضل مصدراً للعرفان الإلهي ومثلاً للفضائل البهائية، وأبدى من التواضع ونكران الذات بحيث وصفه حضرة عبد البهاء في إحدى خطبه بعد وفاة ميرزا أبو الفضل بأنه "مثل أعلى يحتذون به (البهائيون) في حياتهم." وفي مناسبة أخرى أشار إليه بـ"سراج هذا الأمر"، "نور الهداية"، "نجم ساطع"، "بحر موّاج". وعندما كان في أمريكا بعث المولى ببرقية إلى أحد الأحباء في مصر يوصيه بأن يولي ميرزا أبو الفضل عظيم عنايته ويقول: "وينبغي اعتبار شخصه نفس شخصي."

وقد وصفه علي قلي خان نفسه بهذه الكلمات: 'لو لم أرَ حضرة عبد البهاء وحضرة شوقي أفندي، لاعتبرت ميرزا أبو الفضل أعظم النفوس ممن رأتهم عيني.

كان ميرزا أبو الفضل مدركاً لعلو مقام حضرة بهاءالله، وبالوقت نفسه دنو ذاته بالمقارنة، مما منعه من الاستئذان بالتشرف لزيارته. كان أحد حواريي حضرة بهاءالله ولكن لم يُقدر له النظر إلى طلعة مولاه. لكنه فاز بمحضر حضرة عبد البهاء لأول مرة سنة ١٨٩٤م واستمتع بدفء شمس محبته قرابة عشرة أشهر. وهنا أبدى من التواضع ومحوية الذات بحيث تعلم منه بقية المؤمنين الحاضرين معنى العبودية الحقة والانعدام الصرف. وصف علي قلي خان ذلك بهذا الوصف الجميل:

"... نعم، ولكن لكي تعرف عظمته حقاً، كان عليك مشاهدته وهو في محضر حضرة عبد البهاء. حينذاك يهوي به علمه إلى العدم، بحيث يقترن مثله بمثل حصاة على شاطئ البحر."

وبخصوص الفضل العظيم الذي أسبغ عليه بتشرفه بمحضر حضرة عبد البهاء كتب هذا الوصف:

وإني في سنة (١٨٩٤) من الميلاد لمّا سافرت إلى الأرض المقدسة وساعدتني العناية الإلهية بالتشرف بالحضرة القدسية قد دهشت وتحيرت فيما شاهدت من عظائم أطواره وآثاره. ورأيت بعيني في مدة عشرة أشهر أيام إقامتي في جواره مراراً، ما بمحضره الأقدس من كبار القضاة والعلماء، وأكابر رجال العسكرية

والملكية، من الأمم والشعوب المختلفة في الأديان واللسان. وكانت تأتي إليه الرسائل من أطراف الممالك رزماً مع ما يحيط به من الصعوبات التي تنوء بها الجبال يكتب جواب كل واحد من تلك الرسائل بنفسه الكريمة. (والكل يكلمونه في حاجاتهم، ويجيبهم في مطالبهم) دون تأمل أو تفكر أو سكون قلم أو رجوع إلى مسودة أو مساعدة كاتب حتى ملئت من ألواحه المقدسة جميع الآفاق. وبلغ نداء ربه الأبهى إلى السبع الطباق. فانجذبت القلوب إلى ألواحه المنثورة، وطارت الأرواح إلى صحفه المكرمة المنشورة، التي يفوح شذا طيب بيانه من كلماتها، وتنفجر ينابيع العلم والحكمة من آياتها.

إن هذا الرجل العظيم، الذي أعزّه كل من حضرة بهاءالله وحضرة عبد البهاء إعزازاً خاصاً، وأوصى حضرة عبد البهاء أن يقتدي الأحباء من أتباعه بسيرته كقدوة لهم، والذي سُمّي باسمه أحدُ أبواب المقام الأعلى تخليداً لخدماته الرائعة، قد أفلح في تقديم ما قدّم من خدمات لأمر الله بذلك المستوى من الامتياز لأنه بصفة رئيسة انقطع عن كل الشؤونات الدنيوية وكانت لديه الأهلية ليصبح موضع مواهب حضرة بهاءالله وتأييداته.

"كتاب ظهور حضرة بهاءالله، أديب طاهرزاده، المجلد ٣"